

سورة الضحى

مكية وآياتها إحدى عشرة

[نزلت بعد الفجر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

المراد بالضحى: وقت الضحى، وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقي شعاعها. وقيل: إنما خصّ وقت الضحى بالقسم، لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام، وألقي فيها السحرة سجداً، لقوله: ﴿وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُحَىٰ﴾ [طه: ٥٩] وقيل: أريد بالضحى: النهار، بيانه قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضُحَىٰ﴾ [الأعراف: ٩٨] في مقابلة (بياتاً). ﴿سَجَىٰ﴾ سكن وركد ظلامه. وقيل: ليلة ساجية ساكنة الريح. وقيل معناه: سكون الناس والأصوات فيه. وسجا البحر: سكنت أمواجه. وطرف ساج: ساكن فاتر ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ جواب القسم. ومعناه: ما قطعك قطع المودع. وقرئ بالتخفيف، يعني: ما تركك. قال [من الطويل]:

وَتَمُّ وَدَّعْنَا آلَ عَمْرٍو وَعَامِرٍ فَرَائِسَ أَطْرَافِ الْمُتَّقَةِ السُّمْرِ^(١)
والتوديع: مبالغة في الودع؛ لأنّ من ودَّعك مفارقاً فقد بالغ في تركك. روي: أنّ الوحي قد تأخر عن رسول الله ﷺ أياماً، فقال المشركون: إنّ محمداً ودعه ربه وقلاه

(١) ثم إشارة لمكان الحرب أو زمانها، واختلف في «دع» بمعنى اترك، هل ينصرف فيأتي منه الماضي والمصدر، واسم الفاعل والمفعول. قال الجوهري: أميت ماضيه وغيره، وربما جاء في الضرورة اهد، وهو المشهور؛ ولكن حيث جاء في القرآن (ما ودَّعك) بالتخفيف. وفي الحديث «لينتهين قوم عن ودعهم الجماعات» أي تركهم. وجاء اسم المفعول وغيره في الشعر، فيجوز القول بقلة الاستعمال لا بالإماتة، كما قاله بعض المتقدمين. والفرائس: مفعول ثان، وهو جمع فريسة؛ وهي صيد الأسد المفترس. والمتقفة: المقومة بالثقاف، وهو آلة تقويم الرماح. والسمرة: لون بين البياض والأدمة. وشبه الرماح بالأسود على طريق المكنية، والفرائس تخييل؛ والأقرب تشبيه آل عمرو وآل عامر بالفرائس تشبيهاً بليغاً لذكر الأطراف؛ إلا أن يقال: إنها تجريد للمكنية؛ لأنها تلائم الرماح. ينظر: البحر (٤٨٥/٨)، الدر المصون (٥٣٧/٦).

(١٧٦١). وقيل: إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت (١٧٦٢). حذف الضمير من ﴿قُلْ﴾ كحذفه من (الذكريات) في قوله: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٥] يريد: والذكريات ونحوه: (فأوى... فهدى... فأغنى) وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ﴿١﴾ وَلسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْتَضَى﴾ ﴿٥﴾

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ﴿١﴾ بما قبله؟ قلت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلبي: أن الله مواصلك بالوحي إليك^(١)، وأنت حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه: أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته، وغير ذلك من الكرامات السنية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْتَضَى﴾ ﴿٥﴾ موعد شامل لما أعطاه الله في الدنيا من الفلج والظفر^(٢) بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجا، والغلبة على قريظة والنضير وإجلالهم، وبت عمساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام^(٣)، وفسخ الدعوة واستيلاء المسلمين، ولما أذخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض تراه المسك. فإن قلت: ما هذه اللام

١٧٦١ - قال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن مردويه من رواية العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قُلْ﴾ قال أبطأ عليه جبريل الحديث انتهى.

١٧٦٢ - أخرجه البخاري (٧٢٨/٩) كتاب التفسير باب ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قُلْ﴾ ﴿١﴾ حديث (٤٩٥١) ومسلم (١٤٢١/٣) كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين حديث (١١٢)، ١١٣/ (١٧٩٦) والترمذي (٣٣٤٥) والنسائي في «التفسير» (٧٠١) وأحمد (٣١٢/٤) والطبري (١٤٨/٣٠) والطبراني (١٧٣/٢) والواحدي في «أسباب النزول» (٨٥٨) وفي «الوسيط» (٥٠٧/٤).

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف اتصل بما قبله؟ وأجاب بأنه لما كان في ضمن التوديع والقلبي أن الله مواصلك بالوحي إليك... إلخ» قال أحمد: وإخراج أهل الكباثر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك.

(٢) قوله: «من الفلج والظفر» الفلج: أي الظهور والفوز والقهر، كما يفيد الصراح. (ع)

(٣) قوله «وتهيب الإسلام» أي: تخوف؛ كما في الصراح؛ أي: تخوف الناس من أهل الإسلام (ع)

الداخلة على سوف؟ قلت: هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف. تقديره: ولأنت سوف يعطيك، كما ذكرنا في: لا أقسم، أن المعنى: لأنا أقسم؛ وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد، فبقي أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر، فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر، وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك. فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر، لما في التأخير من المصلحة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ ٦ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ٧ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ٨

عَدَدٌ عَلَيْهِ نَعْمَةٌ وَأَيَادِيهِ ٢٦٦/٢ ب، وأنه لم يخله منها من أول تربيته وابتداء نشئه، ترشيحًا لما أراد به؛ ليقبس المترقب من فضل الله على ما سلف منه، لثلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة: ولا يضيق صدره ولا يقل صبره. و﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ من الوجود الذي بمعنى العلم: والمنصوبان مفعولا وجد. والمعنى: ألم تكن يتيمًا، وذلك أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر وماتت أمه، وهو ابن ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، وعطفه الله عليه فأحسن تربيته (١٧٦٣). ومن بدع التفاسير: أنه من قولهم: «درّة يتيمة» وأن المعنى: ألم يجدك واحدًا في قريش عديم النظر فأواك. وقرئ: فأوى، وهو على معنيين: إما من أواه بمعنى أواه. سمع بعض الرعاة يقول: أين آوي هذه الموقسة^(١) وإما من أوى له: إذا رحمه ﴿ضَالًّا﴾ معناه الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع، كقوله: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكَيْتُ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقيل: ضل في صباه في

١٧٦٣ - قال الحافظ الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢٢٨/٤): غريب.

وقال الحافظ: لم أجد هذا. وقال السهلي في الروض: أكثر العلماء على أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو في المهد، كما ذكره الدولابي وغيره. وقال ابن سعد: لا يثبت أنه مات أبوه وهو حمل. ورواه الحاكم من طريق ابن إسحاق: حدثني مطلب بن عبد الله بن قيس بن مخزوم، عن أبيه، عن جده أنه ذكر ولادة رسول الله ﷺ. فقال: «توفي أبوه وأمّه حبلًا به» وبذلك جزم ابن إسحاق. وأما سنة عندما ماتت أمه. فجزم ابن إسحاق أنها ماتت وهو ابن ست سنين. وقال ابن حبيب: وهو ابن ثمان سنين. وأما كفالة عمه له فذكرها ابن إسحاق وغيره. انتهى.

(١) قوله: «يقول أين آوي هذه الموقسة» الموقسة: الإبل الجربى، من الوقس: وهو ابتداء الجرب اهـ من هامش، والذي في الصحاح: يقال وقسه وقسًا، أي: قرفه، وإن بالبعير لو قسا: إذا قارفه شيء من الجرب، فهو موقوس. (ع)

بعض شعاب مكة، فردّه أبو جهل إلى عبد المطلب. وقيل: أضلته حليلة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لتردّه على عبد المطلب. وقيل: ضلّ في طريق الشام حين خرج به أبو طالب، فهذاك: فعرفك القرآن والشرايع. أو فأزال ضلالك عن جدك وعمك. ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوتهم عن العلوم السمعية، فنعم؛ وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم، فمعاذ الله؛ والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر ﴿عَاطِلًا﴾ فقيرًا. وقرئ: عيالًا، كما قرئ: سيحات. وعديماً ﴿فَأَغْنَى﴾ فأغناك بمال خديجة. أو بما أفاء عليك من الغنائم. قال عليه الصلاة والسلام: «جعل رزقي تحت ظلّ رمحي» (١٧٦٤) وقيل: قنعتك وأغنى قلبك».

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

١٧٦٤ - أخرجه أحمد ٥٠/٢، ٩٢ عن أبي النضر، ثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، حدثنا حسان بن عطية، عن أبي حبيب الجرشي، عن ابن عمر مرفوعاً «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وأخرجه البخاري تعليقاً ١١٥/٦ في الجهاد، باب ما قيل في الرماح بصيغة «ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري».

وقال الحافظ في الفتح: ١١٦/٦: في الإسناد عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف في توثيقه... وأبو منيب لا يعرف اسمه.

وذكره الهيثمي في المجموع ٢٧٠/٥ وقال: رواه الطبراني وفيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان وثقه ابن المديني وأبو حاتم وغيرهما وضعفه أحمد وغيره، وبقيّة رجاله ثقات.

وقال ٥٢/٦: رواه أحمد، وفيه عبد الرحمن بن ثابت وثقه ابن المديني وغيره: وضعفه أحمد وغيره، وبقيّة رجاله ثقات.

وقال الحافظ أيضاً: وله شاهد مرسل بإسناد حسن أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن النبي ﷺ بتمامه. اهـ.

وله أيضاً شاهد من المراسيل من مرسل الحسن أخرجه سعيد بن منصور ١٧٧/٢ برقم (٢٣٧٠) عن سعيد، نا إسماعيل بن عباس عن أبي عمير الصوري عنه من النبي ﷺ بتمامه.

وقال الحافظ: هذا طرف من حديث. وأخرجه البخاري تعليقاً وأحمد وأبو داود وابن أبي شيبة وعبد بن حميد. وأبو يعلى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث. عبد الله بن عمر. وفي النسائي عن أبي هريرة أخرجه البزار من رواية صدقة بن عبد الله عن الأوزاعي عن يحيى عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. وقال: لم يتابع صدقة على هذا. وغيره يرويه عن الأوزاعي مرسلًا. وله طريق أخرى في ترجمة أحمد بن محمود في تاريخ أصبهان لأبي نعيم بسنده إلى أنس. وإسناده ساقط. انتهى.

﴿فَلَا تَقَهَّرْ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه. وفي قراءة ابن مسعود: فلا تكهر، وهو أن يعبس في وجهه. وفلان ذو كهرورة: عابس الوجه. ومنه الحديث: «فأبى وأمي هو، ما كهربي» (١٧٦٥). النهى، والنهم: الزجر. وعن النبي ﷺ: «إذا رردت السائل ثلاثاً فلم يرجع، فلا عليك أن تزيره»^(١) (١٧٦٦) وقيل: أما إنه ليس بالسائل المستجدي، ولكن طالب العلم: إذا جاء فلا تنهره. التحديث بنعمة الله: شكرها وإشاعتها، يريد: ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك. وعن مجاهد: بالقرآن، فحدّث: أقرئه، وبلغ ما أرسلت به. وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيراً: قرأت كذا وصليت كذا، فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا؟ قال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْعَمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٢) وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف، وأن يقتدي به غيره، وأمن على نفسه الفتنة. والستر أفضل. ولو

١٧٦٥ - أخرجه أحمد (٤٤٧/٥)، والدارمي (٣٥٣/١) كتاب الصلاة: باب النهي عن الكلام في الصلاة، ومسلم (٣٨١/١): كتاب المساجد: باب تحريم الكلام في الصلاة، الحديث (٥٣٧/٣٣)، وأبو داود (٥٧٣/١ - ٥٧٤): كتاب الصلاة: باب تسميت العاطس في الصلاة، الحديث (٩٣١)، والنسائي (١٤/٣ - ١٨): كتاب السهو: باب الكلام في الصلاة، وابن الجارود (ص: ٨٢ - ٨٣): كتاب الصلاة: باب الأفعال الجائزة في الصلاة، وغير الجائزة، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤٤٦/١): كتاب الصلاة: باب الكلام في الصلاة، والبيهقي (٢٤٩/٢ - ٢٥٠): كتاب الصلاة: باب من تكلم جاهلاً بتحريم الكلام، وأبو عوانه (١٤١/٢ - ١٤٢) والطيالسي (١١٠٥) وابن أبي عاصم في السنة (٢١٥/١) والطبراني في «الكبير» (٣٩٨/١٩، ٣٩٩) وابن خزيمة (٣٥/٢ - ٣٦) من طرق عن يحيى بن أبي كثير عن هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار، عن معاوية بن الحكم به.

قال الحافظ: أخرجه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي في أثناء حديث. انتهى.
١٧٦٦ - أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٥٥/٢) من طريق الدارقطني، ثنا إسماعيل بن أبي العباس الوراق، ثنا عباد بن العوام، ثنا الوليد بن الفضل العمري، ثنا عبد الرحمن بن أبي حسن، ثنا ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً.
وقال: قال الدارقطني تفرد به الوليد؛ قال ابن حبان يروي المناكير التي لا يشك أنها موضوعة.
وقال ابن الجوزي: وقد روي من حديث عائشة ثم ساقه من طريق عبد الغني بن سعيد الحافظ بسنده عن وهب بن زمعة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.
وقال: قال الحافظ عبد الغني: وهب بن زمعة هو وهب بن وهب القاضي.
قال ابن الجوزي وكان يضع الحديث. اهـ وقد روي هذا الحديث عن أبي هريرة.
أخرجه الطبراني في الأوسط (٤١٩/٥) رقم (٤٨٣٠) من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء عن أبي هريرة به.

(١) قوله: «فلا عليك أن تزيره» تزيره: أي تزجره وتمنعه. أفاده الصحاح. (ع)

لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة: لكفى به. وفي قراءة عليّ - رضي الله عنه: - «فخبر» والمعنى: أنك كنت يتيمًا، وضالًا وعائلاً، فأواك الله، وهداك: وأغناك؛ فمهما يكن من شيء وعلى ما خيلت فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث. واقتد بالله، فتعطف على اليتيم وآوه، فقد ذقت اليتيم وهوانه، ورأيت كيف فعل الله بك؛ وترحم على السائل وتفقدته بمعروفك ولا تزجره عن بابك، كما رحمتك ربك فأغناك بعد الفقر؛ وحدث بنعمة الله كلها، ويدخل تحته هدايته الضلال، وتعليمه الشرائع والقرآن، مقتديًا بالله في أن هداه من الضلال.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والضحي جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل» (١٧٦٧).

١٧٦٧ - تقدم برقم (٣٤٦). قال الحافظ: أخرجه الشعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب، انتهى.